محاضرة رقم: 10

قضية الحداثة

الحداثة في النقد العاصر:

انشغل النقد العربي المعاصر بالحداثة انشغالا كبيرا، وخاصة في دراسة الشعر؛ ويعتبر أدونيس المنظّر الأول للحداثة في العالم العربي، فيقول عنها: "الحداثة هي إشكالية المجتمع العربي الرئيسية، بل مشكلة عصرية، ويشير محمد برادة إلى أن مصطلح الحداثة "مفهوم هروب لا يكاد يستقر في تحديد قابلٍ للتعميم، إنّه توصيف ل روح العصر، ولمناخ فكري وحضاري غير ثابت، على نحو يجعل الحداثة بدوره متحركا وملتبسا" لهذا فإن المفهوم الذي يمكن أن يتعلق بالحداثة هو بحث في متغيرات النص الشعري، والبحث في خصائص هذا التغير والتحول.

وهناك من الباحثين من يربط الحداثة بجذور غربية "فمن المؤثرات الغربية لا الجزئيات بل الكليات من المدارس والشخصيات على حدّ سواء، معمار القصيدة إيقاعها، مضمونها، بنيتها الفنية، الاهتمام بالرؤيا والمعاناة العربية والبحث عن أدوات وتقنيات حديثة تعبّر عنها...فالهوية الحضارية تمارس حضورها على الاستقبال من خلال المبدعين فيحولون التقنيات إياها إلى تقنيات عربية" وهكذا تظهر علاقة التأثير والتأثر دون أن تختفي هوية الحداثة الشعرية العربية، خاصة وأنه تم النظر إلى الحداثة على أنها تعني الانفتاح على الزمن الحديث الذي أنتج التكنولوجيا.

خصائص الحداثة:

يطرح سؤال سمات الجديد نفسه في غمار الحديث عن الحداثة، وما هي ملامح الحداثة الشعرية؟

سارت الحداثة العربية في التجربة الشعرية العربية على خطى التحول والتجديد شكلا ومضمونا في بينة النص الشعري، وهذا ما يمكن أن نسقطه على خصائص الحداثة في كونها تتعلق بثنائية الصياغة والدلالة، فالحداثة الدلالية تنطلق من جوهر المعاني التي يعكف عليها قائل الشعر، أما الحداثة في الصياغة فتتحدد بمدى قدرة الأديب على ابتكار أسلوبه الأدائي مما لا يتقيد بأنماط سائدة، ولا معايير مطردة. لهذا فإنّ الحداثة وخصائصها تتعلق بالتغييرات والتحولات الجديدة التي تظهر على: مضمون النص ودلالته وبنياته وتراكيبه، وهذا ما يعكس تجربة المبدع في ابتكار مسارات جديدة لنصوصه الشعرية. وعلى العموم هناك من يرى أن من خصائص الحداثة نجد:

-الصراع الدائم
-عدم الاستقرار
-هوس البحث
-جدلية الرفض والقبول
-تغيير التغيير
-الحرية الإلزامية
-المغايرة والتمرد.

وتبقى هذه الخصائص متعلقة بتجربة المبدع في خوض غمار التجديد على مستوى نصوصه الابداعية.

تفرد الشعر الجزائري المعاصر بحداثته وأسلوبه وقضاياه التي اشتغل عليها الشعراء، إلا أنه هناك ثمة التقاء بين حداثة الشعر الجزائري وحداثة الشعر العربي عامة.ومن تلك التقنيات التي زخر بها الشعر الجزائري نذكر : الرمز، القناع، تداخل الأجناس، تعدد الانزياحات الدلالية في النص الشعري، توظيف التراث، قصيدة الومضة، إلا أن هذه التقنيات تتفاوت بين الشعراء تبعا للغاية والمقصد المنشود والذي ينبع من عمق تجربة الشاعر.

تعتبر قصيدة "طريقي " أوّل قصيدة حرّة في مشوار الشعر الحر في الجزائر لــ " أبي القاسم سعد الله " التي نشرها في " البصائر " في 25 مارس 1955 ، و هي من بحر" الرمل " ، جاءت على ستة مقاطع ويعبّر من خلالها عن التغيّرات الجذرية التي طرأت على البلاد من ثورة و كفاح و نضال ، و اختياره لطريق النضال ، و هذا بعض منها :

يـــــا رفيـــــــــــــقي
لا تلـــــــــــمني عن مروقـــــــــي
فقد اخترت طريـــــــــــــــــقي !
* * *
و طريـقي كالحيـــاة
شائـــــــــك الأهداف مجهول السيمات
عاصف التيـــــــّار و حشي النضال
صاخب الأنـــــــــــات عربيد الخيال
و ظلام و شكـــــاوى و وحـــــول
تترای كطيـــــــوف

من حتـــــــوف
في طريـــــقي
يا رفيـــــقي !

قد لقيت " طريقي " قبولا و استحسانا لدى الشعراء ، فتوالت القصائد الحرّة ، و هذا " أبو القاسم خمّار " بقصيدته " الموتـــــــــــــورة " من ديوانه " أوراق " ، و التي يصف فيها حال لاجئة فلسطينية ، و هي من بحر " المتقارب " ، و جاءت على ثمانية مقاطع ، و هذه بعض مقاطعها و التي نظّمها و هو في " سو ريـــــــا " و بالتحديد في " حلب " ، و ذلك في سنة 1954 :

كحبل وريـــــد . .
قريب . . بعيـــــــد . .
هناك من خيمة نازحة
إلى جانب قرية نائحة
هنالك خلف القبور العراة
بين المآسي ، لفح السراب
بدت عائدة
بقبضتها كمشة من تراب
تزاحمها صخرة صامتة
و قد هتفت بريق عجيب
كلون اللّهيب . .
كلحن الألم
* * *
إلام . . الشّقاء . . ؟
لماذا تحاربني يا زمان . . ؟
أمّا فيك إشراقة أو حنان . .
قلت أبي ، و أضعت أخي
أبقيتني ذرة شاردة ،
ألاقي الهوان
و أزحف فوق السنان
و تعصف بي زفرة عاتية
شرود، سقام، فتوق
و آهة قلب مشوق ،
و ذل العقوق ،
و ظلم الأمم

أمّا " محمد عبد القادر الأخضر السائحي " ، فأوّل قصيدة قالها في هذا النمط الشعري تحت عنوان " حنيـــن " ، و قد نظّمها و هو بتونس في 4 أفريل سنة 1953 ، ويستحن فيها إلى بلاده ، و إلى كلّ حبيب تركه فيها ، و يهفو إلى كلّ شيء لديه و هذا جزء منها :

حبيبي ،
من القلب قلبي ،
إليك .
حنيني ووجدي
حبيبي
أحنّ إلى كلّ شيءٍ
لديك . .

حنيني
إلى وطني إلى حفنةٍ من ترابه
حنيني
إلى زهرة ذات عطرٍ
لديـــــك . .
فؤادي
من الذكريات
يضني الطريق البعيدة
فؤادي
مشوق إلى كلّ شيء
لديك

إنّ مردّ تأخّر ظهور التجربة الشعرية الجديدة في الجزائر عن مثيلاتها في في المشرق ذلك أنّ " الأرضية التي بسّطتها الترجمة في المشرق للشعر الحر ، لم تتح للشاعر الجزائري الذي وقف من الثقافة الفرنسية موقف العداء ، فلم يحتك بها إلا في وقت متأخّر ، و بالرغم من النداءات المبكرة التي رفعها " رمضان حمود " في العشرينات للأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية ، و النّهوض بالأدب العربي عن طريق الترجمة ، فإنّ طابع القطيعة كان و لا يزال يفوّض نفسه على الثقافة العربية و الفرنسية في الجزائر " .

إنّ مقالة " رمضان حمود " الموسومة بـــــ " الترجمة و تأثيرها في الأدب " كانت تنمّ عن الوعي الثقافي ، و مدى الحاجة الملحة للتغيير ، إلى أنّ قصر عمر " رمضان حمود " الذي كان رائد الاتجاه الرومانسي في الجزائر ، لم يسمح بتبلوره ، و بقي هذا التيار غير مكتمل الملامح في الجزائر .

إلاّ أنّ الأثار التي تركها الصدى العميق في حركة الشعر الحر ، و من أهم القصائد التي نظّمها " يا قلبي " التي تبدو محاولة جدّية للتخلص من الوزن و القافية " و لعلّ هذا ما دفعه إلى القول بأنّ الوزن و القافية أغلال حديدية تكبّل الشعر الحر و لا تطوّره ، و غاية أمرها تحسينات لفظية اقتضاها الذوق و الجمال .و مهما يكن من أمر فإنّ " حمود رمضان " استطاع أن يحدث نمطا جديدا في الموسيقى الشعرية ببعض المحاولات التي لم يمهله القدر لتنميتها " . و هذا جزء من قصيدته " يا قلبي " :

أنت يا قلبي فريد في الألم و الأحزان
و نصيبك في الدنيا الخيبة و الحرمان
أنت يا قلبي تشكو همة ما كبارا ، و غير كبار
أنت يا قلبي مكلوم ، و دمك الطاهر يبعث به الدهر الجبار
ارفع صوتك للسماء مرّة بعد مرة
و قل اللّهم أنّ الحياة مرّة
أعنّي اللّهم على اجتراعها

من خلال شعره نلمح ذلك الإحساس الرومانسي الحزين ، ذو طابع مختلف إلى حدّ ما " و في ذلك تهيّئات لدوافع التغيير لدى الشعراء تلمّسوها في الأطلاع و الانفتاح على ما كان يصدر من المركز الشرقي كما أشار إلى ذلك الشاعر " أبو القاسم سعد الله " 1930 ، فيما قاله عن حدث الشعر و كتابته لقصيدته الأولى و نشرها في البصائر بتاريخ 25 مارس 1955 " .

و قد أخذنا مقولة " أبو القاسم سعد الله " عن تجربته الأولى في الشعر من كتابه " دراسات في الأدب الجزائري الحديث " و فيها ما يلي : " كنت أتابع الشعر الجزائري منذ 1947 ، باحثا فيه عن نفحات جديدة و تشكيلات تواكب الذوق الحديث ، و لكنّي لم أجد سوى صنم يركع أمامه كل الشعراء بنغم واحد ، و صلاة واحدة ، غير أنّ اتصالي بالإنتاج الأدبي ، و المدارس الفكرية و النظريات النقدية حملني على تغيير اتجاهي و محاولة التخلّص من الطريقة التقليدية في الشعر ".

انطلاقا مما قاله المؤرّخ " سعد الله " يمكن أن نلاحظ أحد أسباب ظهور الشعر الحر في الجزائر، و هو الاحتكاك بالمشرق و إطلاع بعض الشعراء على هذا اللّون الشعري الجديد من خلال دراستهم في كلّ من " مصر و لبنان " .

أمّا العامل الهام الذي دفع بشعراء الجزائر إلى الشعر الحر هو الثورة ، فبانطلاق الرصاصة الأولى للثورة في ليلة أوّل نوفمبر التي تعلن عن فجر جديد للجزائر على جميع الأصعدة ، فانطلقت التجربة الشعرية الجديدة ، لتساوق الأحداث آنذاك ، فالثورة كفيلة لتدفع الشعراء إلى البحث عن

طريقة جديدة للتعبير عنها ، " و بذا أتاح الشعر الجديد للشاعر فرصة التعبير عن تجاربه بحرية (...) فأصبح يشكّل القصيدة وفق تجربته الخاصة و حسب الموسيقى كما يحسّها في نفسه و بما يتلاءم و الرؤية الجديدة للواقع المتغيّر ... "

ومن الشعراء الذين نلمح عندهم سمات الحداثة الشعرية في الجزائر نجد: الشاعر "فاتح علاق" في دواوينه المعنونة على التوالي: (آيات من كتاب السهو)، (الجرح والكلمات)، (الكتابة على الشجر) بحيث ما يلفت الانتباه هنا هو استراتيجية العنونة التي اعتمدها الشاعر، بحيث نجد انزياحات دلالية على مستوى عناوين الدواوين.

ونجد الشاعر عبد الله حمادي يعنون ديوانه ب (البرزخ والسكين) وهو عنوان يقع على مستواه انزياح دلالي يجعل هناك حمولة دلالية متعددة بحسب تعدد التاويلات التي تحتملها النصوص الشعرية التي يحتويها.

ظل الشعراء الجزائريين يحاولون التجديد من أجل خلق آفاق جديدة في الشكل والمضمون، وذلك بغية تأسيس رؤية جديدة تتماشى مع طموحاتهم ورؤاهم الحداثية، فمنهم من تجاوز البحور الخليلية ومنهم من تمرد على نظام البيت ووحدته إلى وحدة التفعيلة، حتى أصبح شعر التفعيلة بؤرة للتجريب والمغامرة، داحضا بذلك كل القوانين الشعرية التي كانت سائدة في السابق، وجراء هذا الوضع تحول الفعل الثقافي من عمل مؤسسي إلى مشروع أفراد وأصبحت الذات تقود عملية تأسيسية لأشياء هذا العالم بل وتتحول هي مركز التأسيس.

اتّسمت مرحلة الشعر الحر في الجزائر بكثرة الإنتاج الشعري ، و نذكر من الشعراء " أبو القاسم خمار " ، أبو القاسم سعد الله " ، " محمد صالح باوية " و " أحمد الغوالمي، وقد بلغ نتاج هؤلاء الشعراء قمّته في الفترة الممتدة ما بين 1954 و 1960 . فلقد وجد هؤلاء الشعراء في الشعر نفيسا عن الرغبة العارمة في أن يكونوا بجوار المجاهدين على أرض الوطن فشحنوا كلماتهم بكلّ ما استطاعوا من صدى ، بحيث أصبحت الكلمة لديهم تعبيرا عن الطلقة التي يوجّهها إخوانهم إلى صدور المحتلّين داخل الوطن .